صدى العلوم

متخصصة بالبحوث العلمية المحكمة

ترخيص رقم 2022/244

مجلة فصليّة مؤقّتًا، متخصّصة بالآداب والعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة

ISSN 2959-9423

السنة الثانية 20 تموز 25

العدد 9

■ **النسويّة، مسارات تطوريَّة، أُسُس ابستمولوجيَّة ورؤية نقديَّة** / أ.د سحر حجازي

■ **الزواج المختلط بين مختلفي الدين في المجتمع اللبناني** / أ.م.د. تيريز سيف

■ **أدوات المعرفة عند فلاسفة المسلمين** / أ.م.د. الشيخ علي طالب

■ **«ثقافة الحياة» في فكر السيد نصر الله** / د. الشيخ أحمد جاد الكريم النمر

■ **الخطاب الديني في الحرب الإسرائيلية وتوظيفه السياسي** / لارا طلال سليمان

■ **أزمة الهويّة الوطنيّة وأثرها على النّظام السّياسيّ في لبنان** / نجاح حسين مشكور آل عيسى

■ **حريّة الرأي والتّعبير وإشكاليّة التّطبيق** / أسامة فاضل كاظم الجبوريّ

■ **The Uprising Conflict in Prompt Writing** / Dr. Lilian Nasser Abi Shakra

دار بيروت الدولية

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

00961373983

بيبرس من الجنديّة حتّى السّلطنة

ريمان محمد صفوت إعمير[1]

الملخّص

يتناول البحث شخصيّة «ركن الدين بيبرس» بين العصرَيْن الأيوبيّ والمملوكيّ، والحديث عن أصله ونشأته العسكريّة، بالإضافة إلى دوره العسكريّ في الدّولة الأيّوبية؛ والذي يشمل دوره في محالفة الخوارزميّة في غزّة، وموقعة غزّة التي قادها في العام (623هـ/ 1244م)، ومن ثمّ هزيمته للفرنج في معركتَي المنصورة وفارسكور، و دوره في أثناء حكم تورانشاه (648هـ/ 1250م).

يتضمّن البحث أيضًا دور بيبرس في أثناء حكم المماليك؛ بدءًا من حكم المعزّ عزّ الدين أيبك (655هـ/ 1257م)، ثمّ علاقته السّياسيّة مع ملوك الشّام والكرك، ودوره في ظلّ حكم المظفّر قطز (657هـ/ 1259م)، وأخيرًا بروزه في معركة عين جالوت.

الكلمات المفتاحيّة: مملوك، أعمال عسكريّة، موقعة (معركة)، فرنج، مغول.

Abstract:

This research studies the personality of Rokn Al-Deen Baybars between both the Ayyubid and The Mamluk Eras, about his origins and his military upbringing; in addition to his military role in The Ayyubid State which includes his role in confederacy with the Khawarizmshahs in Gaza, his role in Gaza battle which was led by him (623/ 1244), then his defeat to the crusadersin

(1) طالبة دكتوراه سنة ثالثة في التاريخ الوسيط في المعهد العالي للدكتوراه ـ الجامعة اللبنانية.

both battles Al-Mansoura, Farscore and his role during the rule of Touranshah (648/1250).

This research also, includes the role of Baybars during the rule of Mamluks, starting from the rule of Al-Mueezz Ezz Al-Deen Aybak (655/ 1257), then his political relationship with the kings of Damascus and Karak, besides his role under the rule of Al-Mozaffar Qoutoz (657/ 1259). Finally, it includes his prominance in Ain Jalout battle (658/ 1260).

Key words: Mamluk, military tasks, battle, Crusades, Mongols.

المقدّمة

تنوّعت المصادر والمراجع التي تتحدّث عن شخصيّة ركن الدين بيبرس ودوره البارز في العصر المملوكيّ حين كان رابع سلاطين الدّولة المملوكيّة ومؤسّسها الحقيقيّ، إذ حقّق انتصارات عديدة ضدّ الصّليبيّين والمغول في عدّة معارك؛ مثل معركة المنصورة (648هـ/ 1250م). كما أنّه برز في معركة عين جالوت (658هـ/ 1260)، وعُرِف بسياسته في المعارك ودبلوماسيّته وذكائه الذي جعل منه سلطانًا متميّزًا في العهد المملوكيّ. إلّا أنّ معظم الدّراسات تسلّط الضّوء على هذه الشخصيّة في مرحلة السّلطة؛ لذلك تناولت هذه الدّراسة شخصيّة «بيبرس» في مرحلة ما قبل السّلطة، ودوره العسكريّ في العصرين الأيّوبي والمملوكيّ.

الإشكاليّة

إنّ دراسة شخصيّة «ركن الدّين بيبرس» ودوره في دولتَيْن تعاقبت كلّ منها لمرحلة طويلة في العصر التّاريخي الوسيط تسلّط الضّوء على إشكاليّة تكمن في كيفيّة بروزه في هاتَيْن الدّولتَيْن الكبيرتَيْن قبل الوصول إلى الحكم أو السّلطة؛ لذلك يبرز السّؤال المركزيّ:

كيف كان للنّشأة العسكريّة أو البيئة غير العربيّة دور في بروز شخصيّة «بيبرس»؟

وما أبرز الأعمال العسكريّة التي نفّذها في الدّولة الأيوبيّة والمملوكيّة حتّى جعلت منه شخصيّة تاريخيّة مهمّة قبل الوصول إلى السّلطة في العصر المملوكيّ؟

المنهج المتّبع

إنّ منهج البحث التّاريخيّ هو مجموعة الطّرائق والتّقنيّات التي يتّبعها الباحث للوصول إلى الحقيقة التّاريخيّة وإعادة رسم الماضي بجوانبه كلّها كما كان عليه، مع ضبط الحوادث التّاريخيّة بالإسناد المنطقيّ والعقليّ المُقنِع؛ لذلك تعتمد هذه الدّراسة على المنهج التّاريخيّ الذي يقوم أساسًا على جمع المصادر لا سيّما التّاريخيّة منها التي تتعلّق بالموضوع، إضافةً إلى المنهج التّحليليّ للوصول إلى النّتيجة العلميّة.

أوّلًا. أصل بيبرس ونشأته

هو السّلطان الأعظم الملك الظّاهر «ركن الدين بيبرس البندقداري الصّالحي» المُلقّب بأبي الفتوح، كان سلطان مصر والشّام ورابع سلاطين الدّولة المملوكيّة. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّه كان مملوكًا يُباع في أسواق بغداد والشّام؛ إذ إنّه أُسِر في حملات المغول على وسط آسيا، وبيع حتّى وصل إلى المماليك البحريّة الذين سكنوا على شاطئ النّيل[1].

أ. أصل بيبرس

قرّرت عشيرة بيبرس التّابعة إلى القبشاق[2]، أن تغادر بلادها خوفًا من هجوم المغول المتجدّد، فقد كان السّهوب الكبير شمالي البحر الأسود والشّمال الشّرقيّ منه مَحالّ

(1) محمود رزق سليم: **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدب**، المطبعة النّموذجيّة، مصر، ط 2، 1962، مج 1، ص 26.

(2) **القبشاق**: هي بلاد القبجاق أو القفجاق؛ وتُعرَف أيضًا باسم «القبيلة الذهبيّة». وهو أيضًا إقليم بحوض «الفولجا» جنوب شرق روسيا الحاليّة وشمال البحر الأسود والقوقاز، وأهله من التّرك، وكانوا أيضًا أهل ترحال على عادة البدو، حيث كانت بلادهم سوقًا عظيمة للرّقيق المماليك التّرك. أحمد رمزي: **القفجاق**، مجلّة **الرّسالة**، مصر، العدد 724، 19/ 5/ 1947، ص ـ2 3.

استيطان شعوب تركيّة يُطلق عليها في الشّرق اسم «قبشاق» أو «كِفشاق» منذ العصور القديمة؛ وكان هذا الشّعب نفسه يُطلِق عليه الأوروبيّون اسم «كوماني»، والرّوس اسم «بولوفتسي»[1]. وأكثر ما يُذكر عن أصل «بيبرس» ما يذكره «هيثوم» الأمير الأرمني إنّ أصله يرجع إلى سلسلة «الكومان» الذين بيعوا لمصر، وجرى تدريبهم هناك ليكونوا من الأرقّاء المتخصّصين بالحرب. وفي ذلك الوقت كان يُشار إلى «الكومان» السّائد باسم «كابتشاب»، و ربّما «قبشاق».

ب. بيبرس مملوكًا

خوفًا من هجوم مغوليّ متجدّد، التمست عشيرة بيبرس اللّجوء والسّماح لها بعبور «السُداق»[2] في العام (639هـ/ 1241م) من «أنسخان»، وهو أمير إحدى القبائل التّركمانيّة، والذي بدوره أغار عليهم بطريقة غادرة وقتل معظم أفراد القبيلة وساق عددًا منهم إلى الاسترقاق؛ كان من بينهم بيبرس في الرّابعة عشرة من عمره، فجيء به عبر «سيفاز» في آسيا الصّغرى إلى أسواق العبيد الشّاميّة[3]؛ ثمّ أُسِر وبيع إلى رجل يُدعى «العماد الصّائغ»، من ثمّ نُقِل إلى «حماة» وعُرض للبيع مع عبد آخر. في ذلك الوقت كان الأمير «علاء الدّين أيدكين الصّالحي البندقدار» مُعتقلًا في ظروف يسيرة في مسجد قلعة المدينة، وهو أمير تابع للسّلطان الملك الصّالح نجم الدّين أيوب؛ فحين سَمِع بالعبدَيْن استدعى إليه التّاجر واشتراهما منه؛ لذلك أصبح «علاء الدّين» مولى «بيبرس» الذي حمل بعد ذلك نسبه «البندقدار» تبعًا لِلَقب سيّده.

(1) بيتر توراو: **الظّاهر بيبرس**، ترجمة محمد جديد، مراجعة وتقديم أحمد حطيط، دار المهندسين، دمشق، ط 2، 2002، ص 27.

(2) **السُّداق**: مياه البحر الأسود عند البرزخ الذي يفضي إلى شبه جزيرة القرم التي يوجد في جنوبها اليوم المدينة الرّوسية «سوروز»، وهي سوجداق القديمة. انظر: المرجع نفسه، ص 28.

(3) محمود رزق سليم: **عصر سلاطين الماليك ونتاجه العلمي والأدب**، مرجع سابق، ص 26.

ج. نشأته

سرعان ما استعاد بيبرس حرّيّته وأُرسِل على رأس بعض الجند إلى «عجلون»في العام 643هـ/ 1245م؛ لكن حين تزوّج علاء الدّين من سريّة أمير آخر[1]، من دون إذن الملك الصّالح؛ غضب عليه وعزله من منصبه ونفاه وصادر ثروته. أمّا بيبرس فأُدخِل في صفوف مماليكه الخاصّة من الكتيبة البحريّة وتربّى بينهم[2]؛ فنشأ نشأة عسكريّة وشبّ شجاعًا قويًّا[3]، لذلك اجتذب بيبرس انتباه سيّده الجديد بمقدرته حتّى جعله أحد كبار رجاله مقدّمًا؛ أي المشرف على الممالك السّلطانيّة[4].

على الرّغم من حداثة عمره، كان إرسال بيبرس على رأس بعض الجند إلى عجلون فرصة أكسَبَته بعض الخبرة العسكريّة التي أظهرها فيما بعد أمام الملك الصّالح أيوب؛ ما أدّى إلى جذب انتباهه بقدراته العالية واللّافتة، فعوامل البيئة العسكريّة وطبيعتها تخلق ظروفًا فريدة تمنح معرفة في القيادة من خلال التّجارة والممارسة[5]. لذلك عرفته الحروبُ أميرًا مقدامًا، ففي العام (648هـ/ 1250م) هَزم الفرنج في موقعة «المنصورة» في عهد «توران شاه» ابن الملك «الصّالح أيوب»، وفي موقعتي «عين جالوت» و«بيسان» في العام (658هـ/ 1260م)؛ حيث هزم التّتار في عهد «قطز» (ت 658هـ/ 1260م).

بعد النّزاعات التي حصلت بين «الصّالح أيوب» وعمّه «الصّالح إسماعيل» وغيره من الطّامعين، جعل الأوّل قصر إقامته على جزيرة الرّوضة في النّيل[6]، إذ إنّ جيشه

(1) سريّة تعني أنّها امرأة كانت في الأصل مملوكة أو ضمن حريم أمير آخر؛ أي ضمن خادمات أو زوجات غير شرعيّات لدى أمير آخر.

(2) بيتر توراو: **الظّاهر بيبرس**، مرجع سابق، ص 29.

(3) محمود سليم: **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدب**، مرجع سابق، مج 1، ص 26.

(4) بيتر توراو: **الظاهر بيبرس**، مرجع سابق، ص 29.

(5) صامويل هيز ووليم توماس: **تولي القيادة فنّ القيادة العسكريّة وعلمها**، ترجمة سامي هاشم، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط 2، 1989، ص ـ 11 13.

(6) أَبُو العَبَّاسِ تَقِيُّ الدِّينِ أحمَدُ بنُ عَلِيِّ بنِ عَبدِ القادِرِ بنِ مُحَمَّدٍ، المعروف بـ«المَقْرِيزِي»:**السّلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، ج 1، 1997، ص 405.

تخلّى عنه، ولم يبقَ معه سوى مماليكه الذين قرّر أن يجعلهم المرتكز الرّئيس لسلطانه وقوّته. ولأجل ذلك اشترى عددًا كبيرًا منهم ومن أسرى الحرب الأتراك الذين آواهم في قصره، وكوّن نواة جيشه وحرسه الخاص منهم[1]. وتبعًا لإقامته في الجزيرة، أطلق على هذه الكتيبة اسم المماليك البحريّة[2]، كذلك استعان بجند أغراب جمعهم من أطراف الأرض خاصّة من الجركس والأتراك[3].

(1) أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري، المعروف بـ«ابن تغري بردي»: **النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**،الهيئة المصريّة العامّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، ج 6، 1963، ص 231.

(2) المصدر نفسه، ص 256. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 256.

(3) أنور زقلمة: **المماليك في مصر**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 1، 1995، ص 17.

يبدو أنّ عادة تسليح أسرى الحرب المسترقّين أو العائدين إلى شعوب أجنبية ترجع إلى العصر الأمويّ، فظاهرة أسرى الحرب ازدادت منذ أوائل العصر العبّاسيّ، ولم يحدث تجنيدهم إلّا في عهد الخليفة المعتصم (ـ833 842هـ)، إذ إنّه قرر ألّا يقيم سلطته على المرتزقة أوالمتطوّعين؛ بل على حرس من العبيد المتفانين في الولاء له والمرتبطين به كلّ الارتباط. وقد كان أكثر العبيد من شعوب القوقاز وأتراك سهول جنوبي روسيا وآسيا الوسطى. انظر:ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 320.

وهُم أيضًا البارعون في الحرب والذين تميّزوا بالجَلَد والشّجاعة والانضباط، وإمكان الاعتماد عليهم أكثر ممّا يُتَوقع من المحارب العربيّ الحرّ الذي لديه نزعة التمرّد والعصيان وتمسّكه بالقبيلة أهمّ من إخلاصه للحاكم، فقد كان حُسْن أحوالهم يقوم على ولائهم وبراعتهم، ومصيرهم بيد الحاكم. انظر: المقريزي: **السّلوك في معرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 136.

وقد صاغ هذه المسألة الوزير نظام المُلْك المتميِّز بالحصانة السّياسيّة ببيتَين من الشّعر يقولان:

وكم من عبدٍ موالٍ أفضل من مئة ابن،

فالابن يحن إلى موت الأب، والعبد يرجو سلامته.

راجع: بيتر توراو: **الظاهر بيبرس**، مرجع سابق، ص 41.

إنّ أفضل الأوقات التي يُفترض أن يُظفَر بالعبيد هو في سنّ البلوغ، أي حينما تكون مزاياهم الحربيّة في تفتّح، وإنّهم قابلون للتّشكيل والتّوجيه ليخرج منهم مسلمون أتقياء وأتباع متفانون في خدمة سيّدهم، فقد كانت تربيتهم تمتدّ لبضعة أعوام، وتتركّز على تدريب عسكريّ مكثّف وتوجيه إسلاميّ. انظر: شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد أبو العباس المعروف بـ«القلقشندي»: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية، القاهرة، لا. ط، 1922،ج4، ص ـ15 16.

حتّى أنّهم كانوا ينالون حريّتهم بعد تدريبهم؛ وربّما يتقلّدون وظائف الضّبّاط، أيضًا، منهم من وصل إلى السّلطة؛ فمنذ منتصف القرن التّاسع الميلاديّ تحوّل مثال «المعتصم» إلى مدرسة، إذ إنّ الأرقّاء العسكريّين يشكّلون عنصرًا مهمًّا من عناصرالحكّام المسلمين وجيوشهم. انظر: المصدر نفسه، ج4، ص 16. القلقشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، مصدر سابق، ج4، ص 16.

بالإضافة إلى أنّهم اكتسبوا صرامة فُرِضَت عليهم داخل المدرسة العسكريّة التي تدرّبوا فيها وخارجها.

تجدر الإشارة في هذا الصّدد إلى أنّ شراء الملك الصّالح أيوب أرقّاءَ عسكريّين أتراك بأعداد كبيرة كان سابقة لم يكن لأحد من الأيوبيّين أن اعتمدها قبله؛ فأنشأ بذلك دعامة للسّياسة الدّاخليّة المتفانية في الولاء له على نحو مطلق، وشكّل قوة كبيرة استطاع بفِعلها التّصدّي للأعداء الخارجيّين[1]. في ذلك الوقت كان الفرنج العدوّ الأبرز للأيوبيّين، فقد كانوا دائمًا ما يستغلّون المنازعات الدّاخلية ويفيدون منها لتحقيق مصالحهم[2]، ومن أبرز الأمراء الذين اعتمد الصّالح أيوب عليهم: أقطاي (ت 652هـ/ 1245م)، وعزّ الدين أيبك (ت 655هـ/ 1257م)، وقطز (ت 658هـ/ 1260م) وبيبرس (ت 676هـ/ 1277م) الذي ضمّه إليه، واعتمد عليه في كثير من الحروب الدّاخليّة، والتي أبلى فيها بلاءً حسنًا[3].

ثانيًا: أبرز أعمال بيبرس في الدّولة الأيوبيّة

ذاع صيت بيبرس إثر مشاركته الفاعلة في معركة المنصورة، والتي كان من شأنها أن تفتح الباب أمام المماليك لحكم مصر، فقد كانت مشاركته لافتة في ردّ عدوان الحملة الصّليبيّة السّابعة؛ إذ كان صاحب خطّة استدراج الصّليبيّين إلى مدينة المنصورة عندما فتح أحد أبوابها، فدخلت منه القوّات الصّليبيّة ظنًّا منها أنّها خالية، فما راعهم إلّا انقضاض العساكر المصريّة عليهم بعد أن سدّوا منافذ الخروج؛ ما اضطرّ بعضهم إلى إلقاء نفسه في النّيل، فأسفرت المعركة عن خسائر فادحة في جانب القوّات الصّليبيّة.

Anue Broadbridge: **Kingship and Ideology the Fall Islamic andMongaly World**. Camridge Univerity Press, Cambridge, 2008, p. 56.

(1) عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب الأيوبي المعروف بـ«أبو الفداء»: **المختصر في تاريخ البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، ط1، لا. ت. ج3، ص 139.

(2) المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج 1، ص 428.

(3) المصدر نفسه، ج 3، ص 413ـ415.

أ. دوره العسكريّ في الدّولة الأيوبيّة

برز «بيبرس» في مطلع حياته في الشّأن العسكري لِما لديه من براعة قتاليّة، فكان موضع انتباه سيّده «أيوب» الذي جعله أميرًا، فبعد أن مال الخوارزميّون الذين يقاتلون مع الصّالح أيوب إلى نهب البلاد، خرجوا عن طاعته إلّا أنّ الأخير استطاع استمالتهم فيما بعد، وأقطعهم «سنجار وحرّان والرّها»، وزوّج مقدّمَهم من أخته، ثمّ ما لبثوا أن عادوا إلى نهب البلاد شمال الشّام. وفي العام 642هـ/ 1244م، هاجموا بيت المقدس وانتزعوها من الصّليبيّين وواصلوا سيرهم نحو غزّة، فاستأذنوا السّلطان لدخول الأراضي المصريّة؛ فأمرهم بالإقامة في غزّة، وأرسل إليهم الخلع والخيل والأموال، ثمّ جهّز عسكرًا بقيادة «بيبرس» لمحاربتهم؛ فاستطاع أن يهزمهم ويقتل مقدّمهم[1]. وبعد وفاة «الصّالح أيوب» في العام (647هـ/ 1249م)، عمل كبار قادته من المماليك على تدبير الجيش بمشورة زوجته «شجر الدُّرّ» (ت 655هـ/ 1275م) إلى حين وصول ابنه «توران شاه» (ت 648هـ/ 1250م) من حصن كيفا[2].

ب. الخوارزميّة واسترداد بيت المقدس

نشب الخلاف بين الصّالح أيوب وعمّه الصّالح إسماعيل في دمشق؛ حيث لجأ الأخير إلى طلب المساعدة من الفرنجة ووافق على سيطرة الصّليبيّين عليها سيطرة تامّة[3]؛ وفي الوقت نفسه عرض السّلطان الصّالح أيوب الأمر نفسه؛ أي محالفة الصّليبيّين ضدّ عمّه والنّاصر داوود في العام(623هـ/ 1244م)؛ فسيطر الصّليبيّون سيطرة تامّة على بيت المقدس[4]، ثمّ اضطرّوا لاتّباع سياسة ذات وجهين مع ملك

(1) السّيد الباز العريني: **المماليك**، دار النّهضة العربية، بيروت، لا ط. لا ت. ص ـ44 45.

(2) المقريزي: **السّلوك في معرفة الدول والملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص ـ316 324.

(3) المصدر نفسه، ص 417 ـ 418.

(4) أبوعبد الله محمد بن سالم بن نصر الله المازني التّميمي الحمويّ الشّافعي والمعروف بـ«ابن واصل الحموي»: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشّيال ـ حسنين محمد ربيع ـ سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القوميّة، المطبعة الأميريّة، لا. ط، 1957، ج 5، ص 332.

دمشق وسلطان مصر للاحتفاظ بالمكاسب التي حقّقوها؛ إلّا أنّهم أُجبِروا على مهاجمة أحد الطّرفين؛ فاختاروا الوقوف إلى جانب الصّالح إسماعيل في دمشق وفاقًا لما تتطلّبه مصلحتهم[1].

أمّا الصّالح أيوب لم يستطع سوى الاستعانة بالخوارزميّة، فقد استقرّ جزء كبير منهم في الجزيرة حول «الرّها» و«حرّان» و«نصّيبين» بعد مقتل سلطانهم جلال الدّين منكبرتي في العام610هـ/ 1231م؛ فراحوا يشنّون غارات سلب ونهب[2]. وإزاء ذلك تحالف الصّالح إسماعيل صاحب دمشق مع صاحب حمص[3]، وأنزلوا بهم الهزيمة وطردوهم[4]، وظلّوا يواصلون غاراتهم ويعرضون خدماتهم على مَنْ يشتريها؛ حتّى استعان بهم الصّالح أيوب ضدّ ملوك دمشق وحمص والكرك الذين عزموا على غزو مصر بمساعدة الصّليبيّين[5]؛ فاندفع عشرات الآلاف من الخوارزميّة نحو بلاد الشّام الصّليبيّة، وأغاروا على المدن والقلاع[6]، واقتحموا بيت المقدس واستولوا عليها بسهولة، ثمّ استعادوها في العام 642هـ/ 1244م[7]، من ثم توجّهوا نحو غزّة للاجتماع بالعسكر الذي أرسله الصّالح أيوب بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداريّ لمحالفتهم[8]، فقد اكتسب بيبرس خبرة قياديّة في البداية؛ ما أتاح له فرصة استنتاج الأحكام العامّة وزيادة فهمه للأمور.

(1) ابن تغري بردي: **النّجوم الزاهرة في ملوك مصروالقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 322.
(2) سعيد عاشور: **الحركة الصّليبية**، مكتبة المتنبّي، الدّمّام، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 2009، ج2، ص 946.
(3) ابن واصل: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، مصدر سابق، ج5، ص332.
(4) المقريزي: **السّلوك في معرفة الدول والملوك**، مصدر سابق، ج1، ص ـ406 407.
(5) ابن تغري بردي: **النّجوم الزاهرة في ملوك مصروالقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 322.
(6) المقريزي: **السّلوك في معرفة الدول والملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 416.
(7) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، 321.
(8) ابن واصل: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، مصدر سابق، ج 5، ص337؛ المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج1، ص 420.

ج. موقعة غزة بقيادة الأمير بيبرس البندقداري (623هـ/ 1244م)

نشبت حرب بين الخوارزميّة وجيوش الصّالح أيوب بقيادة الأمير بيبرس البندقداري، في العام623هـ/ 1244م من جهة، وبين الصّليبيين وجيوش حمص ودمشق والكرك من جهة أخرى؛ فحلّت الهزيمة بالصّليبيّين وبمن انضمّ إليهم وقُتِل العديد منهم، في حين أُسِر البعض الآخر وسيقوا إلى مصر[1].

د. استيلاء لويس التّاسع على دمياط وهزيمته في معركة المنصورة

عقب استيلاء الخوارزميّة على بيت المقدس شعر الغرب الأوروبيّ بالخطر؛ فعقد ملوكه وأمراؤه «مجمع ليون» في العام 643هـ/ 1245م، والذي قرّر ضرورة إرسال حملة صليبيّة جديدة إلى الشّرق لتدارك الموقف قبل فوات الأوان.

إزاء ذلك أخذ «لويس التّاسع» ملك فرنسا يعدّ العدّة لحملته إلى الشّرق بمشاركة زوجته وأخويه؛ فضلًا عن عدد من كبار الأمراء الفرنسيّين، وقد وفّر مؤونة هذه الحملة عند مرورها بصقلية في طريقها إلى قبرص؛ فأرسل «فردريك الثّاني» إمبراطور الدّولة الرّومانيّة في الغرب إلى السّلطان الصّالح يحذّره[2]، إذ إنّ قبرص تعاونت مع «لويس»عبر تموين رجاله، سواء من النّبيذ أو من الغلال، وأسهمت في تأمين المؤن والمساعدات البشريّة من ملك قبرص وغيره من زعماء الصّليبيّين.

إذًا؛ استغلّ «لويس» الوضع الذي كانت فيه الدّولة الأيوبيّة تعاني كثيرًا من النّزاعات بين أمراء بني أيوب، فتوجّه على رأس حملته نحو دمياط (647هـ/ 1249م)[3]، وقد اتّبع الأسلوب الذي اتّبعه المغول في ذلك العصر عبر إرسال رسائل تهديد. وفي هذه الأثناء كان الصّالح أيوب يعاني مرضًا[4]، فانتقل فورًا إلى الشّام ورابط عند «أشموم»

(1) ابن واصل: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، مصدر سابق، ج 5، ص 338.
(2) سعيد عاشور: **الحركة الصّليبية**، مرجع سابق، ج2، ص ـ954 956.
(3) المقريزي: **السّلوك في معرفة الدول والملوك**، مصدرسابق، ج1، ص 428.
(4) المصدر نفسه، ج1، ص 437.

أو (أشمون) طناح[1]، وأسرع إلى تحصين دمياط وشحنها بآلات عظيمة وذخائر وافرة، ثمّ عهد إلى الأمير فخر الدّين بن شيخ الشّيوخ[2]، بالوقوف على رأس قوّة نحو البرّ الشّرقي، في حين كان الفرنج على البرّ الغربيّ لفرع دمياط؛ فعندما وصل لويس إلى الضّفّة الغربيّة للنّيل المواجِهة لدمياط، دارت معركة بين الفريقين وتفوّق فيها الصّليبيّون بكثرة عددهم؛ فقُتِل بعض أمراء الصّالح أيوب؛ ما اضطرّ الأمير فخر الدّين للتّوجّه صوب «أشموم طناح» وكان معهم بنو كنانة الذين هربوا؛ كذلك أهل دمياط هربوا منها وتركوا أبوابها مفتوحة، فدخلها الفرنج بغير قتال واستولوا على ما فيها من الآلات الحربيّة والأسلحة، والأقوات والأزواد والذّخائر والأموال والأمتعة[3].

إذًا؛ استولى الصّليبيّون على دمياط[4]، ويُذكَر أنّ سقوطها بتلك السّهولة كان «مصيبة لم يجرِ مثلها»[5]، نظرًا إلى قوّة تحصيناتها وأهمّيّتها في تجارة مصر. وفي هذه الأثناء اشتدّ المرض على الصّالح أيوب وحُمِل إلى قلعة المنصورة؛ حيث تُوفّي فيها (647هـ/ 1249م)[6]، ولاشك أنّ وفاته كانت خسارة كبرى لعدم وجود من يحلّ مكانه بسرعة في حكم البلاد، فكان له ابنٌ اسمه «توران شاه» كان قد عيّنه الصّالح أيوب في حصن كيفا وديار بكر[7]، في حين أخفت شجر الدُّرّ زوجة الصّالح أيوب خبر وفاته

(1) المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، مصدر سابق، ج3، ص 411. **أشموم طناح**: بلد في مصر قرب دمياط وهي مدينة الدقهلية. انظر: المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك** (الهامش)، مصدر سابق، ج1، ص 433.

(2) **فخر الدّين**: هو فخر الدين يوسف بن شيخ الشّيوخ، أحد الأمراء المهرة في عهد الملك العادل، ازداد نفوذه في عهد الملك الصالح أيوب وتوفي سنة 648هـ/ 1250م. انظر: المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك** (الهامش)، مصدر سابق، ج 1، ص 434.

(3) أبو الفداء: **المختصر في تاريخ البشر**، مصدر سابق، ج3، ص 138- 139؛ المقريزي: **السّلوك في معرفة الدول والملوك**، مصدر سابق، ج1، ص 439.

(4) المقريزي: **السّلوك في معرفة الدول والملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 438.

(5) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 330.

(6) المقريزي: **السّلوك في معرفة الدول والملوك**، مصدر سابق، ج 3، ص 411؛ ابن الجوزي: **مرآة الزّمان في تواريخ الأعيان**، حقّق هذا الجزء وعلّق عليه إبراهيم الزيبق، الرّسالة العالميّة، دمشق، ط 1، 2013، ج 22، ص 408.

(7) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 364.

إلى حين قدوم ابنه توران شاه، واستمرّت الكتب والمراسيم تخرج بختم السّلطان كأنّه على قيد الحياة؛ إلّا أنّ خبر وفاته تسرّب إلى عامّة الشّعب بل إلى الصّليبيّين أيضًا، فرأى لويس الفرصة سانحة ليتمكّن من إنزال ضربته قبل وصول المُعظَّم توران شاه[1].

هـ. معركة المنصورة

سار الصّليبيّون نحو دمياط عند نقطة تفرّع بحر «أشموم طناح» من فرع دمياط، فكان بحر أشموم يعترض طريقهم؛ ما أعطى فرصة للأمير فخر الدّين قائد الجيش لاستغلال تلك الظّروف الطّبيعيّة، فأخذ ينظّم هجمات مفاجئة ضدّ الصّليبيّين؛ إلّا أنّ الهزيمة حلّت بالمسلمين وقُتِل بعض أمرائهم، وتقدّم الصّليبيّون في زحفهم نحو المنصورة[2]؛ فلم يلبث لويس التّاسع أن وجد نفسه محاصرًا لا يستطيع العبور إلى المنصورة والمسلمون أمامه تزداد أعدادهم. لذلك استعدّ الأمير فخر الدّين لخوض المعركة الفاصلة؛ ولم يلبث أن وقع في كمين نصبه له الدّاوية ـأحد الفرَق الصّليبيةـ فقُتِل وتكبّد الجيش الأيوبيّ خسارة فادحة[3].

بعد ذلك حالف المسلمون الحظّ عندما بادر أخو لويس التّاسع «روبرت دي أرتوا» إلى اقتحام المنصورة من دون أن يصغي لأوامر الأخير الذي حاول نهيه عن ذلك، فأوغل الصّليبيّون داخلها في الوقت الذي خرج فيه القائد الجديد «بيبرس

(1) أبو الفداء: **المختصر في تاريخ البشر**، مصدر سابق، ج 3، ص 140.

(2) المصدر نفسه، المكان نفسه.

المنصورة: بلدة أنشاها الملك الكامل بن العادل بن أيوب، بين دمياط والقاهرة، ورابط فيها في وجه الفرنج لما ملكوا دمياط سنة 616هـ. وقال ابن إياس في ذكر مدينة المنصورة: هذه البلد على بحر أشموم تجاه ناحية طلخان بناها الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة عشرين وستّمائة عندما ملك الفرنج مدينة دمياط فنزل في موضع هذه البلد وبنى فيها عدّة دور، ودار عليها سور ممّا يلي البحر وبنيفيها الأسواق والحمامات والفنادق وسمّاها المنصورة لكونه انتصر هناك على الفرنج، انظر: المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 319 (الهامش).

(3) محمد مصطفى زيادة: **حملة لويس التّاسع على مصر وهزيمته في المنصورة**، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيّة، القاهرة، ط 1، 2000، ص ـ148 149.

البندقداري» متزعّمًا المماليك الصّالحيّة في هذه المعركة ضدّ الصّليبيّين[1]؛ أي إنّ فرقة المماليك البحريّة أنقذت الموقف وأنزلت الهزيمة بالفرنج؛ لأنّ «بيبرس» رتّب كمينًا لهم، وأمر بعدم خروج أحد والالتزام بذلك، وعند توغّل «أرتوا» في المدينة بعد تأكّده من خلوّها، خرجت الفرقة من كمائنها المحيطة بالقصر السّلطانيّ؛ وخرجت الخيالة للدّفاع ضدّ الخطر الصّليبيّ، فحاول «روبرت» الهروب إلّا أنّه قُتِل فضلًا عن عدد كبير من أمراء الصّليبيّين، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثمئة تقريبًا من فرقة روبرت أرتوا، ومثل ذلك من الدّاوية ومثله من الفرق الإنجليزيّة[2].

لاحقًا نفّذ المماليك يوم الجمعة، هجومًا على المعسكر الصّليبيّ، واشترك معهم مشاة المسلمين فضلًا عن جموع من العربان، وفي هذه المرّة قاد المعركة الملك لويس التّاسع وثبُت في المعركة حتّى اضطرّ المسلمون إلى التّراجع في المساء نحو المنصورة بعد أن تركوا أثقالهم؛ إلّا أنّ المؤن عند الصّليبيّين قلّت وفقدوا نسبة كبيرة من فرسانهم في تلك المعركة، ثمّ جاء انتشار الأمراض في معسكرهم في الوقت الذي وصل فيه المُعظَّم توران شاه وأُعلِن سلطانًا على مصر (647هـ/ 1249م). وقد ظلّ الصّليبيّون يحاولون الهجوم على المنصورة من جديد[3]، إلاّ أنّ السّلطان قطع الطّريق على السّفن الصّليبيّة للوصول إلى قاعدتهم في دمياط، ولم تلبث أن انقضّت سفن المسلمين على المراكب الصّليبيّة واستولوا عليها، إذ أستولوا على نحو اثنين وثلاثين مركبًا[4].

هكذا لم يبقَ أمام لويس سوى الانسحاب؛ لكنّه لم يكن بالأمر السّهل، فلجأ إلى

(1) المقريزي: **السّلوك في معرفة الدول والملوك**، مصدرسابق، ج 1، ص 448.

(2) محمد مصطفى زيادة: **حملة لويس التّاسع على مصر**،مرجع سابق، ص ـ156 157؛ ستيفن رنسيمان: **تاريخ الحملات الصّليبيّة**، ترجمة نور الدّين خليل، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر، ط 2، 1994، ج 3، ص 318.

(3) سعيد عاشور: **الحركة الصليبية**، مرجع سابق، ج 2، ص ـ970 971.

(4) أبوالفداء: **المختصر في تاريخ البشر**، مصدر سابق، ج 3، ص 140؛ المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 450.

المفاوضات مع المسلمين على أساس ترك دمياط مقابل أخذ الصليبيّين بيت المقدس وبعض السّاحل، فما كان من توران شاه إلّا رفض الطلب[1]، وفي العام (**64**هـ/ 1250م) بدأ الصّليبيّون يتراجعون نحو دمياط، عندها سار المماليك في أعقابهم يهاجمونهم من كلّ ناحية[2].

بعد موقعة «غزّة»في العام 623هـ/ 1244م، بقيادة الأمير بيبرس وهزيمته للصّليبيّين، تأتي معركة المنصورة بقيادته أيضًا، ليبرز قائدًا عسكريًّا يملك ديناميكيّة مكّنته من التّكيّف مع ظروف الحرب، فقد لجأ إلى حيلة الكمين ضدّ عدوّه، خاصّة بعد هزيمة القائد الأوّل فخر الدّين بالمعركة، كذلك تأثيره في الجنود بأمره بالالتزام وعدم الخروج إلّا في الوقت المناسب، إذ إنّ من صفات القائد العسكريّ حين الأزمات والمواقف الخطرة التّمكّن من التّأثير في سلوك الجنود بصورة فعّالة، سواء عند ممارسة القيادة في مراكز أركان الحرب أم ممارستها في وقع القتال، في المقابل يعتدّ الآخرون بقدرته على الإرشاد إلى الطّريق الصّحيحة أو المناسبة[3].

و. الهجوم على فارسكور

عقِب ذلك؛ غلب المرض على لويس التّاسع ومعظم رجال جيشه[4]، وعندما تأكّد المسلمون من سوء موقف الصّليبيّين؛ اختاروا أن يشنّوا هجومًا عند «فارسكور» (فارس كور)[5]؛ حيث دارت موقعة بين الطّرفين، حلّت الهزيمة السّاحقة بالصّليبيّين، ووقع جيشهم بأجمعه تقريبًا بين قتلى وأسرى[6]، فكان من جملة الأسرى «لويس»

(1) أبو الفداء: **المختصر في تاريخ البشر**، مصدر سابق، ج 3، ص 140.
(2) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 355.
(3) صامويل هيز ووليم توماس: **تولي القيادة فن القيادة العسكرية وعلمها**، مرجع سابق، ص ـ 11 14.
(4) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 364.
(5) سعيد عاشور: **الحركة الصليبية**، مرجع سابق، ص 972.
(6) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 367.

نفسه الذي سيق مكبّلًا بالأغلال إلى المنصورة[1]؛ إلّا أنّ المسلمين أرادوا استرداد «دمياط» وحاولوا تهديده، ثمّ اتّفقوا على أن يكون تسليمها ثمنًا لفداء الملك الفرنسيّ «لويس»، من ثمّ عُقِدت معاهدة بين الطّرفين ـ لويس وتوران شاه ـ تقضي أن يستمرّ الصّلح لمدّة عشر سنوات واحترام شروطه؛ فلم يلبث أن قُتِل توران شاه قبل تنفيذ الاتّفاقيّة؛ ما ترتّب على مقتله سقوط الدّولة الأيوبيّة، وقيام دولة المماليك في حكم مصر والشّام[2].

ز. بيبرس في أثناء حكم تورانشاه (647هـ- 1249م) (648هـ/ 1250م)

عند تسلّم «توران شاه» السّلطة، رأى الأمراء أنّه سيكون أساس الانهيار المحتوم للصّليبيّين، والمحافظ على البيت الأيوبيّ وعلى العرش من بعد أبيه الصّالح أيوب (647هـ/ 1249م)، فقد جاء ومعه مماليكه ورجال بلاطه من حصن «كيفا»، إذ إنّه ارتبط معهم بعلاقة ولاء، فأوثق من ارتباطه بالحاشية السّابقة لوالده التي تقلّدت المراكز المهمّة في مصر، إلّا أنّ السّلطة الفعليّة كانت بيد «شجر الدُّرّ» زوجة أبيه والأمراء المماليك، من بينهم «بيبرس»؛ وهذا ما جعله يطالب شجر الدّرّ بتسليم خزانة الدّولة ومجوهراتها الشّخصيّة، والتي بدورها استنجدت بمماليك زوجها الذين حفظوا العرش والدّولة بعد موت أبيه[3].

في خضمّ تلك الأحداث، أعلن تورانشاه أنّه يريد قتل مماليك والده وذكر أسماءهم، فعندما علموا بالأمر قرّروا أن يستبقوا تهديداته بقتله[4]؛ فخطّطوا لمؤامرة

(1) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 356.

(2) سعيد عاشور: **الحركة الصّليبيّة**، مرجع سابق، ج 2، ص ـ973 974.

(3) المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، مصدر سابق، ج3، ص ـ412 413؛ ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصروالقاهرة**، مصدر سابق، ج6، ص 373؛ أبو الفداء: **المختصر في تاريخ البشر**، مصدر سابق، ج 3، ص 14.

(4) بدرالدّين العيني (ت 855هـ/ 1451م): **عقد الجُمان في تاريخ أهل الزّمان**، حقّقه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، لا. ط. 2010، ج 1، ص 24.

قتله، وفي العام 648هـ/ 1250م كان توران شاه يهمّ لمغادرة الخيمة التي تناول فيها طعامه، وفي تلك اللّحظة دخل عليه بيبرس ووجّه ضربة بسيفه إلى رأسه؛ لكنّه استطاع تفاديها وصرخ طالبًا النّجدة؛ في حين هرب بيبرس. وفي هذه الأثناء انسحب توران شاه إلى برجه الخشبيّ؛ لكنّ المماليك أشعلوا النّار فيه وأرغموه على النّزول[1]، ويُقال إنّه انهزم في برجه الخشبيّ المحروق، إذ إنّه رمى بنفسه إلى ناحية النّيل، فأُدرِك وقطع بقرية فارسكور[2]، وبذلك انتهى دور آخر سلطان أيوبي لتحكم شجر الدّرّ (655هـ/ 1257م)، ويبدأ حكم أول سلاطين المماليك هو عزّ الدّين أيبك (655هـ/ 1257م)، الذي لَقّبَ نفسه بالملك المعزّ؛ والذي تزوّج من شجر الدّرّ يوم ارتقائه العرش، لتحتفظ بمقاليد السّلطة كلّها في يدها[3]، فكانت توقّع على المراسيم توقيعًا مستقّلًا[4].

ثالثًا: بيبرس في حكم المماليك

اشتهرت دولة المماليك بالقوّة العسكريّة والفتوحات الظّافرة ونجاحها في القضاء على أعظم خطرَيْن واجههما المسلمون، هما المغول والصّليبيّون، فكانت السّنوات الأولى في ظلّ سلطنة قطز وخليفته بيبرس من أخطر السّنوات التي واجهت الدّولة. وعلى الرّغم من أنّ دولة المماليك قامت وفاقًا للأسس العسكريّة التّراتبيّة الصّارمة واحترام مبدأ الأقدميّة، غلب الطّابع البشريّ على البناء التّنظيميّ للدّولة في كثير من الأحيان.

أ. بيبرس في أثناء حكم المعزّ عزّ الدين أيبك (648-655هـ/ 1250-1257م)

عندما تسلّم أيبك السّلطة في العام (648هـ/ 1250م)، لم يقبل ملك حلب النّاصر الأيوبيّ هذه السّلطة؛ وطالب بإعادة العرش المصريّ إلى الأسرة الحاكمة الشّرعيّة،

(1) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 371.
(2) بدرالدين العيني: **عقد الجُمان في تاريخ أهل الزّمان**، مصدر سابق، ج 1، ص 26.
(3) المصدر نفسه، ج 6، ص 374.
(4) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 459.

وفي هذه الأثناء اتّفق «بيبرس» والمماليك البحريّة بقيادة «أقطاي» على عدم الاعتراف بسلطة «أيبك»، وطالبوا باختيار الملك الأشرف «موسى» الأيوبي سلطانًا، وهو حفيد الكامل ولا يزال صغيرًا[1]. أمّا أيبك فقد تمكّن من توطيد سلطانه[2]؛ في حين لم يحظَ الصّبيّ بشيء سوى لقب سلطان؛ وكانت العملة المتداولة تحمل اسمه واسم الأيوبي الأشرف، ويخطب لهما على المنابر[3]. في تلك الحقبة، أرسل الملك النّاصر الأيوبي سلطان حلب ودمشق طليعة باتّجاه غزة، فاستحوذ الرّعب على الوحدات التي أرسلها أيبك للتّصدّي لهم، وكان قائدهم الأمير ركن الدّين بيبرس، ومعه بعض الأمراء الذين أعلنوا الولاء للأمير الأيوبي المغيث أمير الكرك والشوبك الذي وصفوه بأنّه حاكم مصر الأيوبي الشّرعيّ الوحيد، فاستطاع أيبك القضاء على حشد السّلطان النّاصر وإحراز النّصر (648هـ/ 1250م)، وانطوى ذلك على مماليكه الذين كانوا يشعرون بالانتماء القَبَليّ للمماليك لجهة أصلهم الممثّل من القبشاق أكثر من ولائهم لسيّدهم.

في العام (649هـ/ 1251م)، غادر أيبك القاهرة على رأس جيش لخوض معركة «العباسة» التي تعرّض فيها النّاصر لخيانة من مماليكه، وفي الوقت نفسه أخمد بيبرس الثّورة في مصر، إذ أبدى موهبته العسكريّة في السّيطرة عليها[4]، وذلك تزامنًا مع انتصارات كتائب المماليك البحريّة التي تزداد اعتزازًا وقوةً في ميادين المعارك، لا سيّما أمرائها أقطاي وبيبرس وبلبان الرّشيدي (ت 659هـ/ 1261م)؛ فكانوا يقفون موقف المتطاول المُلّح؛ وحين شعر أيبك بأنّه مهدّدٌ شخصيًّا من قِبَل البحريّة[5]، قرّر أن يزيل قادتهم من طريقه، فاستدعى الأمير أقطاي في **10** ذي القعدة (651هـ/ 1254م) إلى قصره بذريعة ما؛ وعلى الرّغم من أنّ بيبرس قد حذّره من ذهابه له، فلم يكد يدخل

(1) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 6، ص 374.
(2) بدرالدين العيني: **عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان**، مصدر سابق، ج 1، ص 139.
(3) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 464 ـ 465.
(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 464 ـ 468.
(5) المصدر نفسه، ج 1، ص 472، 477 ـ 479.

القلعة حتّى تمكّن منه نفر من المماليك بقيادة قُطز فقتلوه[1]؛ وأُلقي برأسه مقطوعًا أمام أمرائه الذين كانوا ينتظرونه. وقد حاول أيضًا القضاء على الأمراء الآخرين، لكن أُتيح للأغلبيّة منهم الهرب؛ فهرب فريق منهم إلى الملك المغيث في الكرك، وفريق آخر إلى الملك النّاصر يوسف، وفريق آخر إلى السّلطان السّلجوقيّ في آسيا الصّغرى، ومنهم من قُتِل واعتُقل[2]. وبعد أن تخلّص أيبك منهم أوعز بخلع السّلطان الأيوبيّ الصّبي وجعل نفسه حاكمًا؛ وعيّن الأمير سيف الدّين قطز نائب السّلطنة في ديار مصر[3].

إذًا؛ استطاع القائد بيبرس القضاء على قوات الملك النّاصر الأيوبي بمؤازرة أيبك، من ثمّ نجح بإخماد الثّورة في مصر؛ حيث كان معظم المماليك والأمراء مع بيبرس ممّن يساعدونه في مهامه ينتمون للأصول ذاتها، وهذا يدلّ على كيفيّة تأثير الانتماء القبليّ؛ فيظهر هنا كيفيّة ارتباط القائد بجماعته بعامل الانتماء والتّكيّف مع الجماعة أو البيئة من خلال مهارات إداريّة ينبغي أن تكون لدى القائد العسكريّ[4].

ب. علاقة بيبرس السياسيّة مع ملك الشّام وملك الكرك

بعد قتل أقطاي فرّ بيبرس مع فريق من المماليك البحريّة إلى غزّة، وكتبوا إلى الملك النّاصر يوسف وعرضوا عليه خدماتهم؛ فأرسل إليهم يرحّب بهم.

أمّا أيبك فقد نمّى قوّاته العزيزيّة لكي يوازن بهم القوّة البحريّة؛ لكنّهم قرّروا قتله في إحدى جولاته لفسح الطّريق للنّاصر للمجيء إلى القاهرة؛ لكنّه استشعر بأمرهم وعَلِم بهم فهربوا. وفي ذلك الحين كان بيبرس ومماليكه يلحّون باستمرار على النّاصر للزّحف إلى مصر، وعُقِد صلح بين أيبك والنّاصر على أن تكون الشّام للأخير، وديار

(1) أبو الفداء: **المختصر في تاريخ البشر**، مصدر سابق، ج 3، ص 190.
(2) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص 12.
(3) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 477.
(4) صامويل هيز ووليم توماس: **تولي القيادة فنّ القيادة العسكريّة وعلمها**، مرجع سابق، ص ـ 11 19.

مصر للملك المُعزّ[1]. وبذلك رأى النّاصر أنّ بإمكانه إمداد بيبرس ومماليكه؛ فقسّم الأرض إلى إقطاعات وزّعها على البحريّة، وتلقّى بيبرس نابلس وجنين إقطاعًا.

إلّا أنّ بيبرس وأمراء البحريّة التّابعين له لم يرتضوا ذلك الصّلح مع مصر، وفي العام 655هـ/ 1257م أوعزت شجر الدُّرّ إلى قتل زوجها أيبك لتحاول تثبيت أقدامها في الحكم، فرفض كافّة الأمراء الذين اختارتهم لهذه المهمّة[2]؛ علمًا أنّها كانت مستولية على أيبك في الأحوال كلّها، فلمّا بلغها أنّه يريد الزّواج ببنت الملك الرّحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل؛ عاجلته وعزمت على قتله وإقامة غيره في المُلك[3]، وبعد أن قتلته وقع الاختيار على نور الدّين علي الذي بلغ من العمر خمسة عشر عامًا[4]، وهو ابن أيبك من زواج سابق، ليصبح سلطانًا[5]، ثمّ جرى تثبيت سيف الدّين قطز نائبًا للملك، وأصبح مدبّرًا لشؤون الدّولة[6].

خلال تلك التّطوّرات، كانت العلاقات بين النّاصر يوسف وبيبرس تزداد سوءاً؛ ودائمًا ما تلقّى الأوّل تحذيرات من بيبرس والبحريّين الآخرين[7]، وغادر معه معظم البحريّة (655هـ/ 1257م)، بلاط دمشق؛ أراد النّاصر أن يتخلّص منهم فقاد جيشه والتقى بالقوّات البحريّة عند نابلس؛ وهم الذين تمتّعوا بالخبرة والقوّة والحنكة العسكريّة في الحروب، فقد قتلوا منهم كثيرًا وأكسبتهم هذه الموقعة أيضًا الخبرة في التّحالفات المستقبليّة؛ ثمّ توجّهوا نحو المغيث عمر الذي وزّع عليهم الثّروات التي كان قد حملها الصّالح أيوب إلى الكرك سابقًا[8].

(1) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص 12.
(2) المصدر نفسه، ج 7، ص 12 ـ 13. .
(3) المصدر نفسه، ج 6، ص 375.
(4) بدرالدّين العيني: **عقد الجُمان**، مصدر سابق، ج 1، ص 143.
(5) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص 13.
(6) إسماعيل الدّمشقي المعروف بـ«ابن كثير» (ت 774هـ/ 1373م): **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، لا. ط. 1990، ج 13، ص ـ198 199.
(7) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص 44.
(8) المصدر نفسه، المكان نفسه.

لاحقًا سعى بيبرس إلى الهجوم على مصر؛ فأتى بجيش صغير نحو «العريش»، وتألّفت قوّته من رفاقه البحريّة (الخوشداشية) وآخرين من فرسان الملك المغيث ومقاتلين أحرار من البدو، وكانت أعدادهم بالإجمال تصل إلى نحو سبعمئة رجل؛ فالتقى الجيشان في الخامس والعشرين من ذي القعدة 655هـ/ الرّابع والعشرون من تشرين الثّاني 1257م؛ ونجح بيبرس بشقّ طريقه إلى قلب الخطوط المعادية؛ لذلك لاذ الجيش الضّئيل القادم من الكرك بالفرار، ووقع قلاوون في الأسر، من ثمّ أطلق سراحه بيبرس من جديد. وفي مستهلّ العام التّالي 656هـ/ 1258م، شرع المغيث وبيبرس بحشد جيش جديد أقوى وخرجوا بقوّاتهم إلى «الصّالحيّة»، في مواجهة الجيش المصريّ بقيادة «فارس الدّين أقطاي» المستعرب والأمير «سيف الدّين قطز»، فهرب «بيبرس» وقوّاته، ووقعت عربات التّموين والإمداد في أيدي المصريّين[1].

بعد ذلك فترت العلاقات بين بيبرس والمغيث عمر؛ الأمر الذي جعل وِزْر هذه المحاولة على بيبرس، فسار الأخير من الكرك معتمدًا على نفسه بقوّاته، فاصطدمت قوّاته مع قوّات النّاصر في غزّة ونابلس والخليل، وقَوِي أمر البحريّة في هذه الموقعة[2]. أمّا «المغيث عمر» فقد طلب الصّلح مع الملك النّاصر؛ وقَبِله الأخير مقابل تسليم القوّات البحريّة فاستجاب المغيث لذلك، وقبض عليهم وجهّزهم إلى الملك النّاصر على الجِمال؛ ثمّ حملهم إلى حلب واعتقلهم بقلعتها. وليتفادى بيبرس هذا الأمر توجّه نحو النّاصر وعرض عليه خدماته هو ومَنْ معه من البحريّة؛ فاستقبلهم استقبالًا ودّيًّا، وحظي بيبرس بنابلس وجنين إقطاعَين[3].

نلاحظ أنّه على الرّغم من مؤازرة بيبرس للملك المعزّ في البداية، إلّا أنّه انقلب ضدّه بعد أن أحسّ بخطره عليه[4]، ثمّ حاول كسب النّاصر لصفّه من خلال المفاوضات

(1) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص 45 ـ 46.
(2) المصدر نفسه، ج 7، ص 46 ـ 47.
(3) المصدرنفسه، ج 7، ص 53.
(4) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص ـ464 468.

السّياسيّة؛ إلّا أنّ هذه المحاولات باءت بالفشل، وأراد النّاصر التّخلّص من بيبرس وخوشداشيّته من القوّات البحريّة، الأمر الذي أكسبه أيضًا القوّة والخبرة، سواء أكان في التّحالفات أم في الحروب.

كذلك نلاحظ أنّ بيبرس لم يكن يتبع لأيّ أمير أو سلطان فعليًّا في ذلك الوقت؛ لكنّه استطاع قيادة القوّات البحريّة التي كانت معه، ويُعزى السّبب في ذلك إلى قوّة تأثير القائد العسكريّ في الآخرين؛ فالقائد العسكريّ الفعّال يوطّد سلطته القياديّة مع جماعته، لذلك نجد بيبرس دائمًا ما كانت علاقته مع خوشداشيّته متينة وقويّة يستطيع من خلالها فرض رأيه في مقابل دعمهم له[1]،إذ تظهر هذه الاستراتيجيّة عندما أتى بيبرس بجيشه الصّغير المكوّن من رفاقه البحريّة، وآخرين من فرسان الملك المغيث؛ ليثبت كيفيّة تحالفه مع رفاقه من جهة، ومع فرسان الملك المغيث ومقاتلين بدو آخرين من جهة أخرى ضدّ أعداءه، إضافة إلى ذلك ظهر اهتمامه بخوشداشيّته عندما أعتق قلاوون الذي كان من ضمن قوّاته في العام 655هـ/ 1257م.

لاحقًا بعد وقوع صراع بين المغيث والجيش المصريّ هربت قوّات المغيث وبيبرس؛ الأمر الذي جعل العلاقات تفتر بينهما، ثمّ حاول الأوّل التّحالف مع النّاصر الذي أراد اعتقال القوّات البحريّة التّابعة لبيبرس؛ لكنّ الأخير لجأ إلى السّياسة عن طريق تقديم خدماته للنّاصر الذي بدوره أقطعه نابلس وجنين[2].

بعد ذلك لم يلبث أن ظهر خطر المغول على البلاد الإسلاميّة، واستولوا على بغداد وأسقطوا الخلافة العبّاسيّة في العام (656هـ/ 1258م)، ثمّ أخذوا يتطرّقون إلى بلاد الشّام[3]؛ فاستولَوا على حلب والشّام؛ واضمحلّ أمر الملك النّاصر وفارقه الأمير بيبرس البندقداري، ثمّ قَدِم الأخير إلى مصر ومعه جماعة من البحريّة طائعًا للملك

(1) صامويل هيز ووليم توماس: **تولي القيادة فنّ القيادة العسكريّة وعلمها**، مرجع سابق، ص ـ13 14.
(2) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص ـ44 53.
(3) سعيد عاشور: **الحركة الصّليبية**، مرجع سابق، ج 2، ص 1025.

المنصور، فأكرمه قطز وأكرم رفقته وصار الجميع من عساكر مصر[1]، عندئذ أدرك المماليك أنّه «لابدّ من سلطان قاهر يقاتل العدو، والملك المنصور صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة»، وهكذا عُزِل المنصور علي، وأُعلِن قطز سلطانًا (657هـ/ 1259م)[2]. من هنا، نرى أنّ بيبرس حاول عرض خدماته بوصفه قائدًا عسكريًّا، عن طريق التّحالف مع المغيث تارة، ومحالفة النّاصر تارة أخرة ثمّ محالفة قطز، إذ يدلّ ذلك على اتّباع مصلحة سياسيّة معيّنة.

ج. بيبرس في أثناء حكم سيف الدّين المظفّر قطز (657هـ/ 1259م)

أتاحت الظّروف لسيف الدّين قطز خلعَ المنصور نور الدين علي بن المعزّ أيبك وإخراجه منفيًّا وأمّه إلى بلاد الأشكري[3]، فقد فوجئت مصر بالانهيار السّريع للشّام، ولم يكن هناك متّسع من الوقت لمواجهة التّحدّي المغوليّ، فاصطدم بيبرس بالتّخاذل الأيوبيّ في الشام؛ حيث أنّ الأمير زين الدين الحافظي أخذ يعظّم شأن هولاكو، ويشير بألّا يُقاتَل وأن يُدارى بالدّخول في طاعته؛ فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وضربه وسبّه وقال: «أنتم سبب هلاك المسلمين»، وفارقه إلى خيمته، فمضى زين الدين إلى الملك النّاصر وشكا إليه ما كان من الأمير بيبرس، ثمّ سار الأخير إلى غزّة وفارق النّاصرية[4]، مستأذنًا قطز بالعودة إلى مصر لتوحيد الجهود ضدّ المغول. ونلاحظ هنا مجدّداً كيفيّة عرض بيبرس خدماته وقدراته أيضاً على قطز، فلم يتردّد الأخير باستقباله ليصبح وزيرًا له[5]، وأقطعه قصبة قليوب الخاصّة[6].

إذًا؛ رضخت بلاد الشّام الإسلاميّة للمغول، ولم يبقَ خارجًا عن حكمهم في الجانب

(1) ابن تغري بردي: **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدرسابق، ج 7، ص ـ54 55.
(2) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 507.
(3) المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، مصدر سابق، ج 3، ص 414.
(4) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص509.
(5) إبراهيم بيضون: **الصّراع على الشّام في عصرالأيوبيّين والمماليك**، بيسان للنّشر، بيروت، ط 1، 2006، ص 67.
(6) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج1، 513.

الشّرقيّ سوى الدّيار المصريّة والحجاز واليمن[1]، وكان هولاكو قد أرسل إنذارًا إلى السّلطان قطز في مصر يطلب منه الاستسلام، ويذكّره أنّ المغول استولَوا على البلاد كلّها، ولم تستطع أيّ قوّة الوقوف في وجههم، طالبًا منه الرّضوخ ومهدّدًا ومتوعّدًا؛ إذ دلّت كتاباته على غطرسته ووثوقه بالنّصر حين قال: «وقد سمعتم أنّنا قد فتحنا البلاد وطهّرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب وعلينا بالطّلب، فأيّ أرضٍ تأويكم وأيّ طريقٍ تنجيكم وأيّ بلادٍ تحميكم... فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابنا مناص، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سَلِم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم. فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أنّ نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنّكم الفجرة، وقد سلّطنا عليكم من له الأمور المقدّرة والأحكام المدبّرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة لملوككم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرب الحرب نارها...»[2].

إزاء ذلك، أثبت قطز نظرته الثّاقبة ودعا القادة المماليك إلى مجلس حربيّ، وأشرك الفقهاء في القرار السّياسيّ وشاورهم في أمر التّتار[3]، فقد ردّ على هولاكو بلغة السّيف حين قطع رؤوس الموفدين المغول، في الوقت الذي كانت إغارات المغول قد بلغت غزّة والخليل، «فقتلوا الرّجال وسبوا النّساء والصّبيان واستاقوا من الأسرى والأبقار الأغنام والمواشي شيئًا كثيرًا»[4]، داعيًا إلى الجهاد، باعثًا الحماسة في نفوس الجنود، مستنهضًا منددًا بالمتقاعسين ممّن استباحوا الأموال وهم كارهون للغزو[5]. وعندما اكتملت استعدادات قُطُز للحرب، خرجت مقدّمة الجيش في العام 658هـ/ 1260م،

(1) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج7، ص 78.
(2) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 514.
(3) ابن تغري بردي: **النّجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص ـ78 79.
(4) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 511.
(5) إبراهيم بيضون: **الصّراع على الشّام في عصر الأيوبيّين والمماليك**، مرجع سابق، ص ـ69 70.

بقيادة الأمير بيبرس البندقداري قاصدة غزّة، في الوقت الذي كان «كتبغا» قد أقام قوّة من الجيش المغولي عند غزّة بقيادة «بيدرا» الذي طلب النّجدة منه، لكنّ المماليك بادروا بالهجوم وهزموا بيدرا واحتلّوا غزّة وطاردوا المغول حتّى نهر العاصي[1]. وكان لوصول المماليك إلى جنوب الشّام واحتلالهم غزّة ردّ فعل عند المسلمين في المدن الشّاميّة التي خضعت للمغول[2]؛ فقد كان قرار قطز في خطابه: «أنا متوجّه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإنّ الله مطّلع عليه، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخّرين»[3].

رابعًا: بيبرس في معركة عين جالوت (658هـ/ 1260م)

لما بلغ قطز ما كان من أمر التّتار في الشّام، وأنّهم عازمون على الدّخول إلى مصر، خرج بعساكره وسار إليهم[4]، والتقى بـ «بيبرس» فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة في الخامس والعشرين من رمضان[5]، وهي قرية في فلسطين بين بيسان ونابلس، وكانت خاضعة للنّفوذ الصّليبيّ إلى أن استعادها صلاح الدّين الأيوبي[6]، وما لبث أن وصل كتبغا بقوّاته إليها، فاقتتلوا قتالًا عظيمًا؛ وكانت معركة طاحنة؛ حيث نجح المغول في البداية بالسّيطرة على الموقف بعد دحر مسير المماليك؛ ما أحدث اضطرابًا كاد يؤدّي إلى الهزيمة لولا شجاعة قطز وجموده في المعركة[7]، فقد أظهر زعماء المماليك قطز وبيبرس وزملاؤهما مهارة سياسيّة وبُعد نظر، فاتّجهوا نحو مسالمة الصّليبيّين حتّى لا يحاربوا خصمَيْن في وقت واحد، وأرسلوا إلى ملك عكا يستأذنونه في السّماح لجيوشهم بعبور الأراضي الصّليبيّة لمحاربة المغول؛ فوافق

(1) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 515.
(2) أبو الفداء: **المختصر في تاريخ البشر**، مصدر سابق، ج 3، ص 205.
(3) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 515.
(4) ابن كثير: **البداية والنهاية**، مصدر سابق، ج 13، ص 220.
(5) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 516.
(6) ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1993، مجلد 4، ص 177.
(7) إبراهيم بيضون: **الصّراع على الشّام في عصر الأيوبيّين والمماليك**، مرجع سابق، ص 73.

الصّليبيّون في عكا إذ وجدوا في ذلك انتقامًا من المغول لما حلّ بصيدا من ناحية، ولتخوّفهم من وحشيّة المغول من ناحية أخرى[1].

هكذا سار قُطُز بسلام في أراضي الصّليبيّين، وبعد أن حصل المماليك في الأراضي الخاضعة للصّليبيّين على ما لزمهم من المؤن؛ اتّجهوا شرقًا عبر الجليل لاسترداد دمشق من المغول، عندئذ لجأ قطز إلى خدعة حربيّة ناجحة؛ إذ أخفى معظم جيشه بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت بين بيسان ونابلس، وترك مقدّمة الجيش فقط بقيادة بيبرس تتابع سيرها نحو المغول[2]، فسار حتّى لقي طليعة التّتار؛ فكتب إلى السّلطان يُعلمه بذلك، وأخذ بمناوشتهم، فتارةً يُقدِم وتارةً يُحجِم، إلى أن وافاه السّلطان قطز إلى عين جالوت (658هـ/ 1260م)[3].

إذًا؛ أظهر المماليك شجاعة كبيرة في عين جالوت، حتّى قيل أنّ عسكر السّلطان قطز اضطر بأوّل المعركة؛ وقد دبّ في قلوب المسلمين وهمٌ عظيم من التّتار، فألقى قطز بخوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته: «وإسلاماه»، وحمل بنفسه ومن معه حملة صادقة فنصره الله، حتّى قُتل كتبغا مقدّم التّتار وانهزم باقيهم[4]، وقيل أنّ الأمير جمال الدين آقوش هو من قتله. وكان معهم، أيضًا، الملك المنصور صاحب حماه الذي قاتل قتالًا شديدًا، كذلك الأمير فارس الدّين أقطاي المستعرب أتابك العسكر، والأمير ركن الدّين بيبرس البندقداري الذي برز في مقدّمة العسكر فكان قائدًا قويًّا ومخطّطًا عسكريًّا[5]؛ ثمّ نزل التّتار قرب بيسان بصفٍّ أقوى من السّابق وهزمهم الله؛ وصرخ قطز صرخة عظيمة سمعه معظم العسكر وهو يقول: «وإسلاماه وإسلاماه وإسلاماه!»، «يا الله انصر عبدك قطز على التّتار»، فلمّا انكسر التّتار الكسرة الثّانية نزل

(1) المقريزي: **السّلوك في معرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 516.
(2) سعيد عاشور: **الحركة الصّليبيّة**، مرجع سابق، ج 2، ص 1027.
(3) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص516.
(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 516.
(5) ابن كثير: **البداية والنهاية**، مصدر سابق، ج 13، ص 221.

السّلطان ومرغ وجهه على الأرض؛ فورد خبر انهزام التّتار إلى دمشق،ثمّ حُمل رأس كتبغا إلى القاهرة.

بعد تسارع الأحداث بتلك الوتيرة، ورد كتاب السّلطان إلى دمشق بهزيمة التّتار وسُرّ النّاس سرورًا كبيرًا؛ استناب على دمشق الأمير علم الدّين سنجر الحلبي الكبير[1]، وأرسل بيبرس إلى حمص فقتل كثيرًا من التّتار وأسر منهم[2]، واستردّ حلب من هولاكو؛ وقد كان قطز أرسله ليطردهم منها ووعده بتسلّمها؛ لكن ما إن طردهم وأخرجهم منها استناب عليها علاء الدين ابن صاحب الموصل؛ الأمر الذي جعل بيبرس يأخذ الحذر والحيطة من السّلطان بعد أن أبلغته جماعة من عند السّلطان أن يحترس من قطز، فعزم بيبرس على قتله[3]، واتّفق مع جماعة لذلك في القُصَير؛ حيث قتله هناك، من ثمّ نُصِّب سلطانًا (658هـ/ 1260م).

نستطلع في معركة عين جالوت شخصيّة بيبرس بوصفه مخطِّطًا عسكريًّا ثمّ قائدًا في مقدّمة الجيش، إذ كانت للحروب التي خاضها والتّحالفات السّياسيّة خبرة كبيرة في كيفيّة مواجهة الأعداء، سواء أكان عن طريق السّياسة أم عبر الخطط العسكريّة؛ إضافة إلى معرفته بالطّرق الجغرافيّة التي كانت ملجأه عند هروبه في البداية من الملك المعزّ ثمّ الملك المغيث والملك النّاصر، ما يعني أنّ هذه الظّروف أثّرت في شخصيّته، إضافة إلى التّربية في الثّكنات العسكريّة التي ضمّت التّدريب العسكريّ والتّربية الدّينيّة. ربّما تلك الأسباب جعلته يستشعر بقدرته القياديّة وصولًا إلى اعتماد قطز عليه في التّخطيط والقيادة، فنمت لديه رغبة السّلطة[4]، ما دفع قطز إلى وعده بحلب بعد تطهيرها، لكن عندما لم يفِ الأخير بذلك، اندفع بيبرس إلى قتله والحصول على ما رام الوصول إليه من حكم حلب.

(1) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص 83.
(2) المقريزي: **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، مصدر سابق، ج 1، ص 517 ـ 520.
(3) ابن كثير: **البداية والنهاية**، مصدر سابق، ج 13، ص 222.
(4) صامويل هيز ووليم توماس: **تولي القيادة فنّ القيادة العسكرية وعلمها**، مرجع سابق، ص 11 ـ 14.

بناء على تداعيات تلك الحروب، نجد أنّ المظفّر قطز كان أكبر مماليك المعزّ أيبك التّركماني، وله اليد البيضاء في جهاد التّتار[1]، ولا شكّ أنّ موقعة عين جالوت تُعدّ من المعارك الفاصلة في التّاريخ؛ نظرًا إلى ما ترتّب عليها من نتائج خطيرة، فلو انتصر المغول فيها لفعلوا بمصر مثلما فعلوا ببغداد والشّام، ولكانت البلدان الإسلاميّة تحت حكم المغول، فأصبح من الثّابت أن يترك في تاريخها أثرًا عظيمًا بعيد المدى؛ فانتصار المماليك في عين جالوت لم ينقذ مصر فحسب، بل أنقذ الشّام أيضًا؛ إذ إنّ انتصارهم قلب الموقف رأسًا على عقب، وترتّب عليه قضاء المماليك على البقايا الأيوبيّة في الشّام (الملك النّاصر)، من ثمّ عادت وحدة مصر والشّام تحت حكمهم[2].
تجدرالإشارة إلى أنّ الصّليبيّين استطاعوا الصّمود بوجه وحدة مصر والشّام في عصر صلاح الدّين لأنّهم كانوا محتفظين ببعض مظاهر القوّة؛ فضلًا عن مواصلة إرسال مزيد من الإمدادات والحملات الصّليبيّة للمساعدة على البقاء والصّمود، أمّا في النّصف الأخير من القرن الثّالث عشر فقد اعتراهم الانحلال وأنهكتهم الحروب الأهليّة في ما بينهم؛ ما أدّى إلى فتور الحماسة الصّليبيّة غرب أوروبا.

بعض الاستنتاجات

يتّضح لنا نتيجةً للبحث أنّ بيبرس كان عبدًا مملوكًا اشتراه أمير حماه علاء الدين البندقدار، وأصبح اسمه «بيبرس البندقداري» نسبةً إليه، وبعد ذلك انخرط في الجند التّابعين لنجم الدين الصّالح أيوب، وأصبح من أمراء الدّولة الأيوبيّة؛ فخاض العديد من الأعمال العسكريّة في ظلّها، وكانت «معركة المنصورة» أبرزها، إذ تزعّم المماليك الصّالحيّة فيها وهزم الفرنج، ثمّ جرى الاتّفاق حول معاهدة بين الطّرفين. وبعد وفاة الصّالح أيوب (ت 647هـ/ 1249م)، خَلَفَه ابنه توران شاه (648هـ/ 1250م) الذي رام إلى التّخلّص من بيبرس، فأرسله للهجوم على الصّليبيين في «معركة فارسكور» مع

(1) ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصدر سابق، ج 7، ص 83 ـ 84.
(2) سعيد عاشور: **الحركة الصّليبيّة**، مرجع سابق، ج 2، ص 1028.

القليل من الجند؛ لكنّ الأخير أبدى براعته القتاليّة، من ثمّ تآمر مع الأمراء المماليك للتّخلّص من توران شاه، فلم يلبث أن قُتِل وبمقتله سقطت الدّولة الأيوبيّة.

بعد مقتل توران شاه، حلّ حكم المماليك وكان أوّلهم الملك المعزّ عزّ الدّين أيبك الذي كان سببًا في شتات الأمراء المماليك وهروبهم إلى النّاصر الأيوبيّ في الشّام، ومنهم مَنْ قُتِل. إلّا أنّ العلاقات بين الأمراء المماليك، ومن بينهم بيبرس، والنّاصر الأيوبيّ لم تلبث أن ازدادت سوءًا، فالتجأ بيبرس إلى المغيث عمر ملك الكرك والشوبك. ثمّ أتاحت الظّروف فيما بعد أن يتّحد بيبرس مع سيف الدين قطز ضدّ المغول في معركة عين جالوت، إذ أظهر براعته القتاليّة والقياديّة نظرًا إلى عظمة هذه المعركة وأهمّيّتها، أو لكونها كانت معركة حاسمة وفاصلة في مصير البلاد الإسلاميّة في ذلك العصر، وهو مَنْ وضع خطّتها مع قطز، وأبلَيا فيها بلاءً حسنًا.

استنادًا إلى ذلك، نستنتج أنّ النشأة العسكريّة مع المماليك البحريّة والتّربية الدّينيّة والعسكريّة في الثّكنات أكسبت بيبرس خبرة كبيرة من النّاحية العسكريّة، إضافةً إلى ظروف البيت الأيوبيّ، ثمّ حكم المعزّ أيبك؛ الأمر الذي أدّى إلى هروب الأمراء المماليك ودفع بيبرس إلى إقامة علاقات سياسيّة مع ملوك الشّام والكرك؛ ما أتاح له فرصة لفهم الأمور والتّحالفات، فأضاف إلى مهاراته حنكة سياسيّة، وأظهر في المعارك ديناميكيّة ساعدته على التّكيّف مع ظروف الحرب. كذلك كان له التأثير البالغ في الجنود، إذ صارت شخصيّته تصلح لتولّي السُّلطة؛ غير أنّنا نجد أنّ بيبرس قد لفت انتباه المؤرّخين، مثل المقريزي، من ناحية الدّور العسكريّ، فكثيرًا ما تفرّد ذكرُه بالأهمّيّة العسكريّة.

لائحة المصادر والمراجع

أ. المصادر العربيّة

1. أبو الفداء، عماد الدّين إسماعيل (ت 732هـ/ 1331م): **المختصر في تاريخ البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، ط1، لا. ت.
2. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت 875هـ/ 1470م): **النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، الهيئة المصريّة العامّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، 1963.
3. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل الدّمشقي (ت 774هـ/ 1373م): **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، لا. ط،1990.
4. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم الشّافعي (ت697هـ/ 1298م): **مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشّيال- حسنين محمد ربيع- سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القوميّة، المطبعة الأميريّة، لا. ط، 1957.
5. ابن الجوزي، شمس الدّين قزأوغلي (ت 654هـ/ 1256م): **مرآة الزّمان في تاريخ الأعيان**، الرّسالة العالميّة، دمشق، ط1، 2013.
6. الحموي، ياقوت (ت 622هـ/ 1225م): **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، لا.ط، 1993.
7. العيني، بدرالدين محمود (ت 855هـ/ 1451م):**عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان (عصر سلاطين المماليك)**، حقّقه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، لا. ط، 2010.
8. القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت821هـ/ 1418م): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية، القاهرة، لا. ط، 1922.
9. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م):

1) **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
2) **السّلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1997.

ب. المراجع العربيّة

1. بيضون، إبراهيم: **الصّراع على الشّام في عصر الأيّوبيّين والمماليك**، بيسان للنّشر والتّوزيع والإعلام، بيروت، ط1، 2006.
2. زقلمة، أنور: **المماليك في مصر**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1995.
3. زيادة، محمد مصطفى: **حملة لويس التّاسع على مصر وهزيمته في المنصورة**، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيّة، القاهرة، ط1، 2000.
4. سليم، محمود رزق: **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلميّ والأدبيّ**، المطبعة النّموذجية، مصر، لا. ط، ج1، 1962.
5. عاشور، سعيد عبد الفتّاح: **الحركة الصّليبيّة**، مكتبة المتنبّي، الدّمّام، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط1، 2009.
6. العريني، السيّد الباز: **المماليك**، دار النّهضة العربيّة، بيروت، لا. ط، لا. ت.

ج. المراجع المعرّبة

1. تُوراو، بيتر: **الظاهر بيبرس**، ترجمة محمد جديد، مراجعة وتقديم أحمد حطيط، دار المهندسين، دمشق، ط2، 2002.
2. رنسيمان، ستيفن: **تاريخ الحروب الصّليبيّة**، تعريب السّيد الباز العريني، دار الثّقافة، بيروت، ط2، 1981.
3. هيز، صامويل؛ توماس، وليم: **تولي القيادة فنّ القيادة العسكريّة وعلمها**، ترجمة سامي هاشم، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط2، 1989.

د. الدوريّات

1. رمزي، أحمد: **القفجاق**، مجلّة **الرّسالة**، مصر، العدد 724، 1947.

هـ. المراجع الأجنبيّة

1. Broadbridge, Anue**: Kingship and Ideology the Islamic and Mongaly Worlds**, Camridge University Press: Cambridge, (2008).

صدر عن

دار بيروت الدولية

د. فاطمة مصطفى دقماق

الذّكاءُ العاطفي

سرُّ نجاحك في الحياة

تقديم البروفسور فوزي أيوب

الفصل الأول: مفهوم الذكاء العاطفي ونشأته

الفصل الثاني: الذكاء العاطفي على المستوى الشخصي

الفصل الثالث: كيف نُنمّي الذكاء العاطفي

الفصل الرابع: أهمية الذكاء العاطفي في مجالات الحياة

تجدونه لدى:

- دار بيروت الدولية، حارة حريك، 03/973983.
- الدكتورة فاطمة مصطفى دقماق 03/788626 / الجنوب.
- مكتبة السيد محمد حسين فضل الله العامة، حارة حريك، جانب مستشفى بهمن.
- مكتبة فيلوسوفيا، حارة حريك، شارع الشيخ راغب حرب، 71/548418.
- مكتبة أفكار، حارة حريك، 03/007768.

دار بيروت الدولية
للطباعة والنشر والتوزيع

EUROPUB Publishing Company LTD, UK

CheckInCertificate

CERTIFICATE
OF ACHIEVEMENT

THIS CERTIFICATE IS PROUDLY PRESENTED TO

Sada Al - Oulum

(ISSN: 2959-9423)

has been successfully indexed in **EuroPub Database** in year **2024**, a prestigious repository of scientific literature and research. **"Sada Al - Oulum"** has met the rigorous standards and criteria set forth by EuroPub Database for inclusion in EuroPub database, demonstrating excellence in scholarly content, editorial quality, and relevance to the scientific community.

This indexing acknowledgment is a testament to the dedication and commitment of the editorial board, authors, and contributors of **"Sada Al - Oulum"** to advancing knowledge and innovation in ***Arts, humanities and social sciences***.

This certificate is issued under the cover of EuroPub Publishing Company, Ltd., UK.

Euro Code: 1655739804 **Issue on:** 2024-09-14 **Validity:** 1 Year

Please check it as online with Euro Code: https://cms.europub.co.uk/qr_check

VALID

SIGNATURE

Database: http://europub.co.uk/

INTERNATIONAL Scientific Indexing

Fresh Ideas for Growing your Citations

Certificate

This is to certify that **Sada Al-Oulum** is indexed in International Scientific Indexing (ISI). The Journal has Impact Factor Value of **0.623** based on International Citation Report (ICR) for the year **2023-2024** .
The URL for journal on our server is
https://isindexing.com/isi/journaldetails.php?id=23574

Editor ICR Team (ISI)

International Scientific Indexing (ISI)

INTERNATIONAL Scientific Indexing

Fresh Ideas for Growing your Citations

Certificate

This is to certify that **Sada Al-Oulum** is indexed in International Scientific Indexing (ISI). The Journal has Impact Factor Value of **0.961** based on International Citation Report (ICR) for the year **2024-2025**

The URL for journal on our server is
https://isindexing.com/isi/journaldetails.php?id=23574

Editor ICR Team (ISI)

International Scientific Indexing (ISI)

موقع المجلة الإلكتروني: www.sadaloulum.com
البريد الإلكتروني: sadaloulum@gmail.com
الرقم التسلسلي المعياري الدولي لتعريف الدوريات الإلكترونية: ISSN 9431-2959